لزوم مـــا لا يلزم

متى نُظم وكيف نُظم ورُتب ؟

للدكتور عبد الوهاب عزام

عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

عنيت بأبي العلاء المعري ناشئاً ، وكتبت في أخباره وأشعاره تلميذاً. وما زلت معنيًّا به حافظاً لأخباره وأشعاره . واللزوميات أعظم آثار الرجل ، وهي سجلّ عقائده وآرائه ، ولها النصيب الأوفر من أحاديث من يتحدثون عن المعري ، وكتابة من يكتبون في فلسفته .

وكثيراً ما ساءلت الأدباء وسألت نفسي: متى نظمت اللزوميات وكيف رُتبت ؟ أخط الشاعر خُطتها ثم نظمها ولاءً على ترتيب حروف الهجاء ، فآراؤه فيها متوالية على هذا الترتيب ؟ ما تتضمنه أبيات على رويّ الهمزة مقدّم زماناً على ما يذكر في أبيات على رويّ الباء وهلم جرا ؟ أم نظم الرجل ما نظم ثم رتبه على حروف الهجاء ، فقدّم متأخراً وأخر متقدماً ، مسايرة للترتيب الهجائي ؟ فما يُعرف المتقدم والمتأخر من شعر الرجل إلا ما دلت عليه حوادث مذكورة فيه ، ولا يستطاع تتبع أفكاره ورعاية تطورها على الزمان؟ وكنت أقول إنه لا بد لمؤرخ أبي العلاء من أن يفصل في هذه القضية ، فيجزم بأن اللزوميات مرتبة على الزمان أو غير مرتبة .

لذلك أعدتُ قراءة اللزوميات مستوعباً ، متقصّياً الأبيات التي تذكر فيها حوادث معروفة أو رجال معروفون ، والتي تذكر فيها سنّ أبي العلاء أو حاله من الشباب والكهولة والشيخوخة . وراجعت ما أثره التاريخ من أخبار الرجل ، وذكر كتبه ، فانتهيت إلى القضايا التي أسجلها فيما يأتي :

— ١ —

متى نظمت اللزوميات

جمهرة شعر أبي العلاء في مجموعتين : الأولى تتضمن شعر الصبا والشباب ، وهي التي سماها سقط الزند . وقد جرى في هذا الشعر مجرى الشعراء الآخرين ، مدح وهجا وتغزّل ورثى ووصف الخ .

وقد قال أبو العلاء في مقدمة سقط الزند :

« وقد كنت في رُبّان الحداثة ، وجنّ النشاط ، مائلا في صفو القريض ، أعتدّه بعض مآثر الأديب ، ومن أشرف مراتب البليغ . ثم رفضته رفض السَّقب عِرسه ، والرأل تريكته ؛ رغبة عن أدب معظمُ جيِّده كذب ، ورديئه ينقص ويَجدب » .

وقال مستملي أبي العلاء الذي كتب ثبت كتبه كما رواه ياقوت في معجم الأدباء :

« ومن غير هذا الجنس كتاب لطيف فيه شعر قيل في الدهر الأول يعرف بكتاب سقط الزند وهو ثلاثة آلاف بيت » .

وفي سقط الزند قصائد قالها في بغداد ، وأخرى أرسلها إلى بغداد بعد رجوعه إلى المعرة سنة أربعمائة ، وأبيات قيلت بعد سنين كثيرة من اعتكافه في المعرة كالبيتين اللذين مدح بهما القاضي ابن نصر المالكي[1] . فإن هذا القاضي مر بالمعرة في طريقه من بغداد إلى القاهرة ، ولم تطل إقامته بمصر ، فتوفي بها سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، فقد نظم المعري هذين البيتين حوالي سنة عشرين وأربعمائة . ومرثية جعفر بن علي بن المهذب التي مطلعها :

أحسن بالواجد من وجده صبر يُعيد النار في زَنده

والمجموعة الثانية هي التي سماها « لزوم ما لا يلزم »

— ٢ —

هذه المجموعة الثانية من أشعار أبي العلاء قد نظمت بعد رجوعه من بغداد . وقد خط خطتها ، وتكلف لها ما تكلف من لزوم ما لا يلزم ، ومن استيعاب الحروف الهجائية على الحركات الثلاث والسكون . قال في مقدمتها :

« كان من سوالف الأقضية أني أنشأت أبنية أوراق توخّيت فيها صدق الكلمة ، ونزّهتها عن الكذب والمَيْط . ولا أزعمها كالسِّمط المتّخذ ، وأرجو ألا تحسب من السُّمَيط . فمنها ما هو تمجيد لله الذي شرف عن التمجيد ... الخ » .

وقال في المقدمة كذلك :

(١) والمالكي ابن نصر زارني سحر بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلا وينصر الملك الفضيل إن شعرا

«وقد تكلفت فى هذا الكتاب ثلاث كُلَف :

الأولى : أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها

والثانية :أن يجىء رويّه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك

والثالثة : أنه لُزم مع كل رويّ فيه شيء لا يلزم من باء أو تاء أو غير ذلك من الحروف »

فهذا شعر حُدِّد موضوعه واختير له نظامٌ فى القوافى ، وترتيب على الحروف وحركاتها ، وكأنه كتاب من كتب العلوم اتصل تأليفه حتى كمل ، وهى خطة تسلّى بها المعرى فى عزلته ، فينبغى أن يكون تاريخه متصلا ونظمه متوالياً

وأنا أدّعى أن ما تضمن هذا الكتاب من الآراء هو فلسفة أبى العلاء فى عزلته بعد سنة أربعمائة ، وأن هذا الكتاب كله ، إلا أن تشذ أبيات قليلة ، نظم بعد هذه السنة .

يدل على هذا أن أبا العلاء قال فى مقدمة السقط : إنه رفض الشعر . وقال فى مقدمة اللزوميات : « وقد كنت قلت فى كلام لى قديم: إنى رفضت الشعر رفض السقب غِرسه ، والرأل تريكته ، والغرضُ ما استجيز فيه الكذبُ . واستعين على نظامه بالشُبهات . فأما الكائن عظة للسامع ، وإيقاظاً للمتوسن ، وأمراً بالتحرز من الدنيا الخادعة وأهلها الذين جُبلوا على الغش والمكر ، فهو إن شاء الله مما يُلتمس به الثواب »

فهذا النظم الذى توخّى فيه العظة والإيقاظ كان بعد النظم الذى جرى فيه مع الشعراء ، ثم رفضه رفض السقب غِرسه ، والرأى تريكته كما تقدم

ودليل آخر أنه ذكر سنّه فى كثير من أبيات اللزوميات تصريحاً وتلويحاً ، ولم يذكر ما دون الأربعين ، وهو قد بلغ الأربعين سنة ثلاث وأربعمائة إلا بيتاً واحداً فى جزء القافية :

إذا هبّت جنوب أو شمال ... فأنت لكلّ مُقتاد جنيب

رويدك إنْ ثلاثون استقلّت ... ولم يُنب الفتى فمتى ينيب ؟

والخطاب فى هذا البيت إما أن يكون لغير الشاعر ، وإما أن يكون بعض اللزوميات قد نظم حين جاوز الثلاثين قبل سفره إلى بغداد ، وإما أن تكون هذه القطعة نظمت كذلك بعد رجوعه من بغداد واعتزامه الاعتزال ، وكانت سنّه حينئذ سبعاً وثلاثين سنة ، فقد مضت الثلاثون ولم يبلغ الأربعين ؛ فليس بعيداً أن يذكر مرور الثلاثين . ومهما يكن فجميعة الكتاب نظمت بعد سنة أربعمائة كما أسلفت .

ودليل آخر على أن أبا العلاء شرع ينظم اللزوميات بعد رجوعه من بغداد بقليل ، أنه يذكر فى اللزوميات — كما فعل فى سقط الزند — رحلته إلى العراق آسفاً على الرحيل وعلى الأوبة . وهذا ، فى غالب الظن ، لا يقال بعد مضى سنين كثيرة على هذه الرحلة :

ومابى طرق للمسير ولا السُّرى ... لأنى ضرير لا تضيء لى الطُّرُق

أغربانُك السُّحم استقلّت مع الضحى ... سواحَ أم مرّت حمائمك الوُرق

رحلتُ فلا دنيا ولا دين نلته ... وما أوبتى إلا السفاهة والحمق

* * *

يالهف نفسى على أنى رجعت إلى ... هذى الديار ولم أهلك ببغداذا

إذا رأيت أموراً لا توافقنى ... قلت الإياب إلى الأوطان أدّى ذا

* * *

شُئِمتِ يا همّة عادت شآميّة ... من بعد ما أوطنت عصراً ببغدادى

* * *

وأزيد على هذه الأدلة أن أبا العلاء ذكر سن الأربعين مرات فى اللزوميات ، وقد بلغها بعد رجوعه بسنين ثلاث

— ٣ —

إن كان المعرى شرع ينظم لزوم ما لا يلزم حين رجع من بغداد أو بعد رجوعه بقليل ، فكم استمر ينظمها ، ومتى انتهى من نظمها وجمعها ورتبها وكتب لها المقدمة التى كتب ؟

يمكن أن نجيب على هذا السؤال بوسيلتين : الأولى تتبع الحادثات التى ذكرها والرجال الذين أورد أسماءهم فى شعره ؛ والثانية استقراء الأبيات التى ذكر فيها سنّه

(١) **الحوادث والرجال :**

١ — أولا : بنو عامر وطيء

يذكر أبو العلاء فتناً وخطوباً أثارها بنو عامر وطيء فى الشام وما حولها ، ويسمّى بعض رجالهم فى مواضع كثيرة ، منها:

إذا عامر نبعت صالحا . وزجّت بنو قرّة الحردبا

وأردف حسانُ فى مأتج متى هبطوا مُخصباً أجدبا
وإن قرعوا جبلا شامخاً فليس يُعنّف إن يحدبا
رأيتَ نظير الدبا كثرة فتيرُهمُ كعيون الدبا

ومنها :

ألم تر طيئاً وبنى كلاب سموا للملاد عزّه والعريس
ولو قدروا على الطير الغوادى لما نهضت إلى وكر بريش

ويذكر طيئاً وزعيمها حسان فى قوله :

قد أشرعت سنبسٌ ذوابلها وأرهفت بحتر معابلها
لفتنة لا تزال باعثة راعها فى الوغى ونابلها
حسان فى الملك لايحس لها تُزجى إلى موتها قنابلها

ويقول :

أرى حَلباً حازها صالح وجال سنان على جلّقا
وحسّان فى سَلَفى طيئ يصرّف من عزّه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار ثَغاما على هامهم عُلّقا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد خُلّقا الخ

وقد رثى للرملة كثيراً وحزن لما ناب أهلها ؟ يقول :

والرملة البيضاء غودر أهلها بعد الرفاغة يأكلون قفارها

عتروا الفوارس بالصوارم والقنا
والمَلْك فى مصر يعتّر فارها[1]
جعلوا الشفار هواديا لتنوفة مرهاء تكحل بالدُجى أشفارها
تكبو زناد القادحين وعامر بالشام تقدح مَرخها وعَفارها

ويقول :

أيا قَيلُ إن النار صال بحرّها مقيم صلاة والمهنّد وارس
وبالرملة الشعثاء شيبٌ وولدة أصابهم مما جنيت الدهارس
وقد ظهرت أملاك مصر عليهم فهل مارست من ظلمها ما تمارس؟
وأحسنُ منكم فى الرعية سيرة طُغجّ بن جُحف حين قام وبارس

وقد ذكر العرى هذه الحادثات فى سقط الزند كذلك ، إذ قال فى القصيدة التائية التى بعث بها إلى على التنوخى بعد رجوعه من العراق :

بينى وبينك من قيس وإخوتها فوارسٌ تدرأ الكتار بالكتيتا

ويقول فى القصيدة الطائية التى أرسلها إلى خازن دار العلم ببغداد وهو محتجب بمعرة النعمان :

وما أذهلتنى عن ودادك روعة وكيف وفى أمثالها يحب الغمط
ولا فتنة طائية عامرية يحرّق فى نيرانها الجمد والسمط
وقد طرحت حول الفرات جرانها
إلى نيل مصر فالوساع بها نقطو
فوارس طعانون ما زال للقنا
مع الشيب يوماً فى عواضهم وخط
وكل جواد شفّه الركض فيهم وجٍ يتمنى أن فارسه سقط
ونبّالةٍ من بحتر لو تعمدوا بليلٍ أناسىّ النواظر لم يُخطوا

فما هذه الفتن التى ذكرها أبو العلاء ومتى كانت ؟

(يتبع)

عبد الوهاب عزام

---

(١) الملك فى مصر كان للفاطميين حينئذ وكان الخليفة منهم الظاهر (٤١١ — ٤٢٧) فهو يلوم الفاطميين على أن تركوا هذه القبائل تعيث فى الأرض وهم لاهون بتعتير فارات المسك يتطيبون بها لا بعتر الفوارس والعتر الذبح .

ليلى والعبيط

ويحيى

هى قصة اليوم
قصة النفس الحائرة
قصة الأديب الشقى السعيد
قصة الحياة كما هى
قصة الضحك والبكاء

دار المعارف للطباعة والنشر فى ٢٧٢ صفحة
ثمنها ٢٥ قرشاً — تولى نشرها المؤلف

تطلب من : مكتبة المعارف ، والنهضة ، والاعجلو ، والأهلية ، والتجارية ، وغيرها .
المؤلف : الياس عكاوى ١٧ شارع فؤاد الأول القاهرة
تليفون ٤٣٩٠٩